

رابعاً

عن العدالة والتسامح وتحديث الخطاب الديني

(١)

العدالة من منظور عربي إسلامي

أيها السيدات والسادة الأفاضل... صباح الخير
اسمحوا لي أن أحبيكم بتحيةة الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته داعيا الله
أن يعم السلام والمحبة العالم - كل العالم، وذلك لن يتحقق بالتأكيد إلا إذا سادت العدالة
- وهي موضوع مؤتمرنا هذا - العالم وحرص الجميع عليها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.
وقبل الخوض في هذا الموضوع المهم، ليس على الصعيد الفلسفي والفكري فقط، بل على
صعيد تحقيق الأمن والسلم العالميين، اسمحوا لي بداية أن أتوجه بجزيل الشكر وعظيم
الامتنان للبروفيسور د. فالتر بفانجوخه Walter Pfannkuche وللأستاذ الدكتور سرحان
ذويب على كريم دعوتهما لي ممثلا لجامعة القاهرة وكلية الآداب وقسم الفلسفة بها، وقد
تشرفت والدكتور سرحان بالمساهمة في مد جسور التعاون بين جامعتكم الموقرة و جامعة
القاهرة ممثلة في قسم الفلسفة بها، وأتمنى أن يستمر هذا التعاون ويتطور أكثر وأكثر في
المستقبل ان شاء الله.

لقد كنا نتمنى أن نستقبلكم في جامعة القاهرة العام الماضي وفي نفس هذا التوقيت
تقريبا لكن الظروف والأوضاع السياسية لم تسمح بذلك وانتقل المؤتمر إلى تونس الشقيقة،
والآن وقد تحسنت الأوضاع كثيرا يسعدنا أن نستقبلكم العام القادم ان شاء الله، وبالطبع
لايفوتني هنا أن أتوجه بعميق الشكر والامتنان للهيئة الألمانية للتبادل العلمي DAAD على
كريم دعمها لنا ورعايتها لهذا التبادل والنشاط العلمي المتميز وكذلك على جهود القائمين
عليها في القاهرة في تذليل العقبات التي واجهتنا في الحصول على تأشيرة الدخول
وتسهيل إجراءات سفرنا إلى هنا.

والحقيقة أن الموضوع الذي نلتقى للحوار حوله اليوم، موضوع العدالة، هو ما يشغل بال
البشر اليوم خاصة في ظل عصر العولمة وحوار الحضارات والثقافات بل وحوار الأديان.
فالعدالة في اعتقادي هي محور وجوهر الحياة الإنسانية؛ فهي المطلب الأساسي للإنسان
ليحيا حياة إنسانية مستقرة منذ فجر التاريخ؛ فعليها قامت أول الحضارات الانسانية في

مصر وبلاد ما بين النهرين، وفي سبيلها قامت الحروب وتفجرت الصراعات بين البشر أفرادا وجماعات حتى داخل المجتمع الواحد. وكما كان رائعا أن يكتشف المصريون القدماء العدالة (ماعت أو ماعت) سر أسرار الاستقرار في الحياة المدنية الإنسانية فيقدسونها لدرجة التأليه، وقد كانت ماعت (أى العدالة والنظام) عندهم هى الدولة والدولة هى ماعت؛ حيث لم توجد الدولة إلا لتحقيق الماعت، والماعت يجب أن تتحقق ليصبح العالم قابلا للسكنى. وقد أجمعت كل صور الخطاب السياسى فى مصر القديمة من خطاب الملوك والوزراء إلى خطاب الشعب وخطاب الحكماء على ذلك بشكل لافت للانتباه؛ فالملوك يعتبرون أن وظيفتهم الأساسية هى تحقيق العدالة والنظام فى الدولة وحينما كان الحاكم ينجح فى ذلك يصبح هذا هو مصدر فخره ووسيلته للانتقال الآمن لحياة الخلود فى العالم الآخر، انظر مثلا لما تقوله الملكة حتشبسوت:

لقد مجدت الماعت التى يحبها الإله لأنى أعرف أنه يعيش منها
إنها أيضا خبزى، وإنى أشرب رحيقها
بكونى جسدا واحدا معه

لقد صاغت الملكة حتشبسوت فى هذه العبارات - على حد تعبير يان آسمان - البنية الثلاثية النظرية للدولة والسياسة المصرية المكونة من إله الشمس والملك والماعت؛ إذ إن الهيمنة وحكم العالم هو امتداد للخلق وامتياز خاص بالخالق رغم أنه يقتسمها مع ابنه الفرعون؛ فالإله هو المهيمن على الكون كله، وابن الفرعون هو المهيمن على النظام الديوى الإنسانى، والماعت هى المشترك بينهما فعن طريقها يتطابق الكونى مع الديوى وتتكامل الدائرتان المنفصلتان (يان آسمان، ماعت مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية، ترجمة د. زكية طبوزاده ود. علية شريف، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع بالقاهرة ١٩٩٦م، ص ١١٨ - ١٢٣).

وإذا كانت تلك هى الرؤية الفلسفية العامة المفسرة لاستقرار الدولة المصرية لآلاف السنين، فإن واقع الحال كان يؤكد ذلك حيث إن الاستقرار وقوة الدولة كان يكمن فى وجود وتطبيق الماعت (العدالة) على الأرض، وكان غيابها يعنى أن تعم الفوضى ومن ثم التمرد والشكوى؛ وليس أدل على ذلك من شكاوى القروى الفصيح التى دلت على مدى وعى الشعب بحقوقه وقوته فى المطالبة بتحقيق العدل حتى لو كان مرتكب المظالم موظف كبير يعمل لدى حاجب الملك نفسه.

وقد برهنت برديات إيبور، ذلك المفكر المصرى الذى عاش نحو الألفين قبل الميلاد على أن حكماء مصر القديمة كانوا يتمتعون كذلك بحرية التفكير والنقد ورفض الظلم الذى يعانى منه الناس ويدمر البلاد. فلقد انتقد إيبور أداء الملك فى عصره وأوضح له صور الفساد والظلم والفوضى التى يعانى منها الناس وطالبه باعادة الماعت ودفع الظلم ونادى بضرورة عودة الاستقرار والنظام العادل وتطبيق القانون حتى يتمكن الناس من العودة إلى ممارسة حياتهم السعيدة المستقرة على ضفاف النيل.

إن قوة القانون واحترامه فى كل صغيرة وكبيرة كان فيما يبدو أحد سمات الحكم والنظام السياسى فى مصر القديمة، ومما يدل على ذلك بوضوح ذلك الاحترام الذى كان الملوك يبدونه للقانون وتطبيقه بصرامة؛ ففى واقعتين شهيرتين رواهما لنا ديودور المؤرخ اليونانى الذى زار مصر عام «٥٩ قبل الميلاد» نقلا عن الوثائق التى خلفتها الأسرة السادسة فى عصر بيبى الأول والأسرة العشرين فى عهد رمسيس الثالث، نجد أن هذين الملكين العظيمين وبينهما أكثر من ألف عام يتعرضان لمؤامرة لقلب نظام الحكم وقتل الملك الجالس على العرش، بزعامة زوجة الملك فى الأولى وإحدى نساء القصر فى الثانية وبمشاركة بعض رجال الحاشية، وقد أحال الملك فى الحادثتين الواقعة للتحقيق وأمر بأن يتولى القضاة هذا التحقيق بدون أى تدخل من جانبه، وحث القضاة على تحقيق العدل بأن يأخذ كل متهم الجزاء العادل طبقا للجرم الذى ارتكبه. وقد دهش ديودور المؤرخ وتعجب من رباطة جأش هذين الملكين مؤكدا أنه كان بإمكانهما قطع رقاب هؤلاء المتأمرين دون محاكمة ولكنهما لم يفعلا ذلك ولم تأخذهما روح الانتقام فضلا أن يطبق القانون وتتحقق العدالة القانونية^(١)!

هكذا كان الحال فى مصر القديمة صاحبة أول مدنية فى التاريخ الإنسانى، احترام للقانون وحرص شديد على تطبيق العدالة باعتبارها روح الدولة وأساس الحياة المدنية. وقد انتقلت هذه الروح الداعية الى العدالة من مصر إلى بلاد اليونان حيث نادى فلاسفة اليونان بالعدالة واحترام القانون، وقد تأثر هؤلاء الفلاسفة وخاصة أفلاطون صاحب أول مذهب فلسفى فى السياسة جوهره نظريته فى العدالة التى وردت فى محاوره «الجمهورية»، لدرجة أن قال كرانتور أحد أقدم المعلقين على أعمال أفلاطون: إنه (أى أفلاطون) لم يكن

(١) انظر فى كل ماسبق كتابنا: الخطاب السياسى فى مصر القديمة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة

مبدع هذه الأفكار التي تناولها فى الدولة وإنما نقلها عن النظم المصرية^(١). ولقد أدرك أرسطو أول علماء وفلاسفة السياسة المحترفين أن العدالة والقانون هو ما يميز الحياة الإنسانية عن الحيوانية ويجعلها تبلغ أفضل كمالاتها، فإن خالف الإنسان القانون والعدالة صار أشر الحيوانات جميعاً^(٢).

وقد ظلت العدالة والحلم بالدولة العادلة ونظام الحكم العادل هو مطلب البشر منذ ذلك التاريخ البعيد فى الحضارات الشرقية والغربية حتى يومنا هذا، وقد قامت كل الثورات الإنسانية وفى كل الدول وعلى كل النظم السياسية طلباً للعدالة والمساواة والحصول على الحريات. ولم يشهد العالم الغربى هدوءه النسبى إلا بعد تحقيق هذه المطالبات التى كافح من أجلها الناس وعبر عنها خير تعبير فلاسفة عصر التنوير من جون لوك إلى فولتير وروسو وكانط فى ظل نظام سياسى واقتصادى ليبرالى يحافظ على الحريات وبتيح التنافس فى ظل قوانين عادلة تحفظ للجميع حقوقهم وتتيح لهم المشاركة فى بناء أنفسهم ودولهم وتحقيق التقدم والتطور المطردين. لقد استقرت أوروبا شيئاً فشيئاً حينما نجحت فى ابتداء النموذج الجديد للدولة الديمقراطية الساعية إلى جعل قيم الحرية والعدالة والمساواة حقوقاً مكفولة للمواطن تحافظ عليها الدولة وينعم فى ظلها الأفراد، وقد صدرت ذلك النموذج لأمريكا ومن شاء من دول العالم الأخرى.

وقد كان المأمول بعد بلورة نظام عالمى جديد تمثله الأمم المتحدة ومنظماتها الدولية المختلفة وما صدر عنها من إعلانات واتفاقيات متتالية لحقوق الإنسان والحفاظ على الحريات والحقوق أن تسود صور العدالة المختلفة عالم البشر جميعاً دون تمييز، لكن واقع الحال كشف عن صورة مغايرة تماماً، حيث اجتاحت الدول الأوروبية بلدان العالم الثالث واستعمرتها استعماراً استيطانياً فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وهاهى الآن تساند أمريكا فى عهد الاستعمار الجديد، سواء بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة. لقد تساندت الدول الغربية مجتمعة - بغياب العدالة على المستوى الدولى بقصد أو بدون قصد - فى تأجيج الصراعات والحروب فيما بين دول العالم الآخر وخاصة فى المنطقة العربية، وحتى بين فرقاء القطر الواحد، صراعات عرقية ودينية وطائفية لدرجة أصبحت معها المنطقة

(١) (نقلا عن: مارتن برنال، أثينا السوداء، الترجمة العربية تحت إشراف د. أحمد عثمان، نشرة المجلس الأعلى

للثقافة بالقاهرة ١٩٩٧م، ص ٢١٥).

(٢) (كتاب السياسة - ٣ك - ٧ب - فقرة ٢)

أشبهه بفضاء مفتوح على مصراعيه للحروب والصراع والقتل والتدمير، والطريف أن كل من يشارك في هذه الصراعات والحروب يدعى أنه يخوضها من أجل الحريات وحقوق الإنسان والحفاظ على حقوق الأقليات الدينية والعرقية والطائفية وماشابه! ويتم كل ذلك تحت بصر الغرب وبرعاية الولايات المتحدة الأمريكية التي نصبت نفسها راعية للحريات وحقوق الإنسان في كل مكان على كوكب الأرض في حين أننا نعلم جيدا أن هذه العصابات والطوائف والأقليات المتطرفة إنما وجدت ونمت وتسلحت تحت بصرها وبرعايتها لتحقيق أهداف معينة ولكن سرعان «ما ينقلب السحر على الساحر»!!

والسؤال الذى ينبغى أن يثار من منظور فلسفى وإنسانى شامل هو: هل ما يسود العالم اليوم مما نسميه «النظام العالمى الجديد بزعامة هذه القوة المهيمنة - أمريكا» يمكن أن نعتبره نظاما عالميا عادلا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا؟!

إن الحقيقة الواضحة أمامى هي أنه ليس كذلك؛ فنحن أمام نظام عالمى يدعى نظريا ما لا يطبقه عمليا، فأنتم أيها الغربيون قادة العالم اليوم وعليكم يقع عبء تحقيق العدالة وفرض النظام العادل لكنكم عادة تقولون ما لا تفعلون؛ إذ إن قيم العدالة والمساواة والحريات لا نرى لها أثرا فى الواقع إلا لديكم وبين مواطنيكم، ولايهم ما يحدث للبشر فى الجانب الآخر من العالم حيث الفقر والبطالة والجوع ونقص الخدمات التى توفر الحد الأدنى من الحياة الآدمية، فهم بالنسبة لكم بشر نعم، لكنهم ليسوا كالبشر!! إن الحديث عن الحقوق لديكم دائما ما يرتبط عمليا بمواطنيكم ولا ينسحب على بقية البشر؛ فمن حقكم الريادة والسيادة، من حقكم أن تسودوا وتتقدموا وتحققوا كل الخير لأنفسكم، لكن ليس واجبا عليكم أن تتقاسموا هذه الخيرات مع بقية العالم ناسين أن موارد العالم هي من الجميع وينبغى أن يرتد خيرها على الجميع وليس على مجموعة من البشر دون الآخرين أيا كان هؤلاء أو أولئك! إن خيرات العالم ومسببات الرفاهية والتقدم ينبغى أن تكون قاسما مشتركا بين الجميع لأن ما حققه الغرب من تقدم فى العصر الحديث إنما الفضل فيه يرجع لهذا الجانب الآخر من العالم الذى تطلقون عليه الآن بكل بساطة - وهذا عين التمييز العنصرى - العالم الثالث أو حتى الرابع!!

أين العدالة والمساواة فيما يصدر من قرارات وأفعال جائرة وظالمة إزاء هذا العالم الآخر الذى تتهمونه بالتطرف والغلو، والحقيقة أنكم السبب المباشر فى غلوه وتطرف بعض أبنائه؟! أين العدالة والمساواة فى هذه القوانين والاتفاقيات الاقتصادية الجائرة التى شطرت

العالم شطرين؛ أحدهما غنى يتمتع بكل الخيرات والحقوق والحريات والآخر فقير ومحروم مما يقية شر الجوع والعطش ومما يحميه من برد الشتاء وحر الصيف؟! أين تلك القوانين العادلة والأصوات المدافعة عن حقوق الإنسان بينما لا يزال في العالم هناك شعب يعيش تحت الاحتلال المباشر مغتصبة أرضه ومنتهكة كل حقوقه هو الشعب الفلسطيني؟! وما أن يثور وينتفض طلبا لأبسط حقوقه في الحياة وحرية الحركة وبقيّة مطالبه الأساسية في الوجود وممارسة الحياة السوية نقسو عليه وتتهمه بالتطرف والإرهاب لأنه وللأسف أطلق بعض الصواريخ تجاه الدولة المحتلة التي انتهكت كل هذه الحقوق ضاربة عرض الحائط بكل المواثيق والأعراف والقرارات الدولية، وكأن هذا الاستثناء الذي حصلت وتحصل عليه دائما دولة إسرائيل بفضل الدعم الأمريكي والغربي سيظل إلى الأبد!!

متى إذن نحيا حياة العدالة الإنسانية الشاملة التي نادى بها الرواقيون قديما وفلاسفة التنوير حديثا وعبر عنها ميثاق الأمم المتحدة في ديباجته الشهيرة؟! متى يتساوى البشر في الحقوق والواجبات والاستمتاع بالخيرات والحياة الآمنة المستقرة أيا كان لونهم وأيا كان جنسهم وأيا كان المكان الذي يعيشون فيه على الأرض، تلك الأرض التي خلقها الله لتسعد بسكانها كل البشر فإذا مواردها وخيراتها مقصورة على بعض البشر دون الآخرين؟! متى تتحقق العدالة بصورها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين البشر، ومتى يتحقق إنصاف البشر للبشر ويتساوى مواطنو العالم في جميع النواحي؟!

يرى جون رولز صاحب كتاب «العدالة انصاف» أنه لكي تتحقق العدالة المنصفة لابد «أن يكون الأطراف نظراء في الوضع الأصلي.. وهذا يعنى أن يكون الجميع متساوين في جميع النواحي عندما تكون المسائل مختصة بالعدالة الساسية الأساسية أى يكونون حائزين على قدر كاف من القوى المطلوبة ذات الصلة بشخصيتهم الأخلاقية وعلى قدرات أخرى تخولهم تعاوناً طبيعياً ومكتملاً على مدى الحياة.. وبخلاف ذلك لا يكون الوضع منصفاً للمواطنين الأحرار المتساوين»^(١).

إننا فقط نطالب بأن ما يقوله رولز هنا لا ينبغى أن يقتصر على مواطنى دولة ما فى مكان ما من العالم، بل ينبغى بموجب مبدأ الأخوة العالمية والمساواة بين البشر أن يكون مطبقاً بين كل البشر أياً كان لونهم أو جنسهم أو المنطقة التى يسكنونها من العالم!

(١) الترجمة العربية لحيدر حاج إسماعيل، المؤسسة العربية للترجمة ببيروت ٢٠٠٩م، ص ١١١.

(٢)

التسامح.. تلك القيمة الأخلاقية الكبرى وحدودها

إن التسامح هو القيمة الأخلاقية والدينية الكبرى التي نحن أحوج ما نكون إليها الآن فى هذه اللحظات التاريخية الفارقة فى تاريخ الأمة وربما فى تاريخ العالم. إن على كل الفرقاء فى عالمنا العربى والإسلامى الآن أن يعلوا المصلحة القومية العليا للأمة بشيء من التسامح مع الآخر، والتخلى عن التعصب الأعمى للفكرة أو للمبدأ أو للعقيدة التى يؤمنون بها، وليدرك كل الفرقاء والمتعصبين أن الحقيقة دائماً حمالة أوجه، وأن الوجه الذى يتمترسون حوله باعتباره الحقيقة المطلقة ليس هو على الأقل كل الحقيقة. ومن ثم عليهم أن يحسنوا الاستماع إلى وجهة النظر الأخرى لعل فى الاستماع إليها والتسامح معها يكون حل المشكلة أو على الأقل يكون السبيل للتقارب أو للتعايش مع أصحابها، ففى التسامح وقبول التعايش مع الآخر أياً كانت آراؤه أو معتقداته تكون المواطنة الحققة ويكون جلاء الإيمان بالتعددية التى فطرنا عليها الله وجعلها أساساً من أسس الحياة البشرية سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو إبداعية.

إن تراثنا الحضارى يحضنا على هذه القيمة الإنسانية الكبرى؛ فمنذ جدى الأكبر بتاح حناب فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد لم يتوقف دعاة الحضرة والمدنية عن الدعوة إلى التسامح، فهأهو بتاح يدعو ابنه لأن يحسن الاستماع إلى الآخرين لأنه قد يجد الحكمة حتى لدى «عمال الطواحين»، كما دعت الفلسفات الهندية فى الشرق الأقصى، والمسيحية فى الشرق الأوسط إلى التسامح واللاعنف وعدم رد الأذى بالأذى.

أما عن التسامح فى الإسلام فحدث ولا حرج حيث الآيات القرآنية واضحة صريحة فى الدعوة إلى هذه القيمة الإسلامية الكبرى؛ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: آية: ٢٩]، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون: آية: ٦] ﴿لَا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: آية: ٢٥٦]، وقد أجمل القرآن ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين البشر فى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: آية: ١٣] وهى الوجه

الآخر لقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة هود: آية: ١١٨]. والتسامح في القرآن الكريم مساو للعتو وقربينه، وقد ذكرت كلمة العفو في القرآن خمسة وثلاثين مرة وهي صفة من صفات الله أمر بها نبيه والمؤمنين؛ انظر إلى قوله تعالى عن نفسه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [سورة آل عمران: آية: ١٥٥]، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [سورة المائدة: آية: ٩٥]، وإلى قوله للرسول وللعباد ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الشورى: آية: ٤٠] وقوله أيضا ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [سورة النور: آية: ٢٢] و ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَنَصَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التغابن: آية: ١٤]، والتسامح والعفو هنا هما دعوة واضحة إلى الإحسان إلى الآخرين ومعاملتهم معاملة حسنة رغم ما قد يواجهوك به من عداوة؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الحج: آية: ٣٧]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: آية: ٦٩]، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: آية: ٣٤]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: آية: ٤٦]، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة: آية: ٨٣]. ولقد لخص الرسول ﷺ كل ذلك في أحاديثه النبوية الشريفة التي جاء في كثير منها قوله: «إنما بعثت بالحنيفية السمحة» فكان عصب الدين في نظر الرسول الكريم هو السماحة والتساهل واليسر ومن ثم التسامح. وقد شارك الخلفاء الراشدون والفقهاء والصوفية، بل والمتكلمون والفلاسفة في تدعيم هذه القيمة الإسلامية العظيمة والدعوة إليها والعمل بها؛ وليس هناك أبلغ في التعبير عن ذلك من قول الإمام الشافعي: إن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. إذن فليس من الإسلام في شيء ما نراه الآن على الساحة الإسلامية والعربية من التشدد والتعصب والغلو!! إن بعض الذين يأخذون الإسلام سندا لتشددهم وتعصبهم الأعمى ومعاداة لمجتمعهم وللمجتمعات الأخرى، إنما هم خارجون عن هذه الطبيعة السمحة للدين الإسلامي، وهم ليسوا دعاة له، بل هم خطر عليه وقدوة سيئة للعقيدة التي ادعوا الإيمان بها، وهم بعيدون عن إدراك حقيقة الإسلام وسمو مبادئه التي تسعى لاحتضان كل البشر دون تفرقة ودون إقصاء.

أما الحضارة الغربية فهي منذ فجر تاريخها في بلاد اليونان لديها الدعوة إلى التسامح كأحد القيم الأساسية للديموقراطية؛ وها هي خطبة بريكليرس - الذي حكم أثينا القديمة

فى أزهى عصورها - الجنائزية، تقدم الصورة الأرقى والأقوى للتسامح؛ انظر إليه وهو يقول: إن الفقر ليس حاجزا، بل يستطيع المرء مهما كان وضيعا أن يخدم وطنه وليست الحياة العامة احتكارا أو وقفا على فئة من الناس.. إننا فى معاملاتنا اليومية لا يخامر الواحد منا شك فى أمانة الآخر وصدقه ولسنا نغضب من جيراننا إذا ماتصرفوا بالطريقة التى يرتضونها لأنفسهم ولسنا نزدري الرجل الذى لا يروق لنا إن كان رجلا لا ضرمنه. ، وقد جاءت كتابات أفلاطون على هيئة محاورات متعددة الأطراف تعبيرا عن روح التعددية فى الرأى والتسامح بين أصحابها بما فيهم أفلاطون نفسه، وقد أحيأ فيها أفلاطون آراء السوفسطائيين رغم أنه كان كارها لها وشديد النقد لمعظمها مما يعبر عن إيمانه بأن الحقيقة حمالة أوجه، بل إنه انتقد بنفسه ماسبق أن أكده من آراء فى محاوره «بارمنيدس» ليؤكد أن كل الأفكار قابلة للنقد والتطوير حتى ولو سبق وأن قدمناها كحقائق مبرهن عليها!

ومن أفلاطون إلى جون لوك صاحب أول كتاب عن التسامح، إلى فولتير الذى قال بحق: إن التسامح ملازم لكيونوتنا البشرية وأننا جميعا من نتاج الضعف فكلنا هش وكلنا ميال للخطأ ولذا دعونا نسامح بعضنا بعضا، ونسامح بعضنا بعضا بشكل متبادل، وهكذا كانت دعوة كل فلاسفة التنوير فى العصر الحديث. ومن هؤلاء إلى وايتهد الذى يرى ضرورة نشر روح التسامح على مستوى دولى من خلال تيسير الطواف حول العالم وتقصير المسافات المكانية والزمانية بين الشعوب حيث يساعد ذلك على الاعتراف بأن الأمم الأخرى ذات العادات المغايرة ليست أمما معادية بل هى من «عطايا الله». إن التسامح فى رأيه واجب ينبغى أن يعترف به كل رجل عاقل مما يسبب خصوبة التركيب الذى يتصف به العمل الحاضر وإمكانيات التطور الأوسع التى يمكن أن يشتمل عليها المستقبل.

ومن كل هؤلاء إلى جون رولز الذى أكد فى كتابه «نظرية العدالة» أن المجتمع القائم على العدل يجب أن يكون متسامحا، وبناء عليه يجب التسامح مع المتعصب وإلا سيتحول المجتمع فى هذه الحالة إلى مجتمع متعصب وغير عادل. ولكن هذا التسامح مع المتعصبين ينبغى أن يكون بالقدر الذى لا يشكل خطورة على المجتمع القائم على التسامح ومؤسساته الاجتماعية.

ولعل فى رؤية رولز تلك ما يجيب على تساؤل كارل بوبر فى كتابه عن «المجتمع المفتوح وأعدائه»: هل ينبغى للمجتمع القائم على التسامح أن يجيز فكرة التعصب؟ وماذا

لو كان التسامح عن الفعل سيدمر المجتمع؟! حيث إن التسامح الذى ندعو إليه ليس بلا حدود وليس تساهلا بلا نهاية وإنما ينبغى أن يكون مشروطا بالحفاظ على سلامة المجتمع وتماسك مؤسساته ، فإن كان التعصب للفكرة أو للمعتقد أيا كان سيولد كراهية لدى أتباعه للمجتمع ولؤؤسساته ويدفعهم للسلوك العدوانى تجاه الآخرين ومؤسسات المجتمع فإنه حينئذ سيفتقد المعنى ؛ فالتسامح والتساهل يكون مع المتعصب لفكرته أيا كانت لكن دون أن يتحول من خلالها إلى عامل من عوامل السلوك الهدام تجاه الآخرين والمجتمع . فالحقيقة التى يشير إليها كل من «بوبر ووايتهد» وكذلك «رولز» رغم أنهم من دعاة التسامح هى أن التسامح قد يولد مذهباً متشدداً أصيلاً! وهنا نقول إنه لو حدث هذا فإنه ينبغى مواجهته أولاً بالفكر والحوار حتى نحول دون تحول هذا المذهب المتشدد شديد التعصب إلى أداة هدم وتدمير للمختلفين معه وللمجتمع ومؤسساته ككل . ولكن السؤال الصعب هنا هو: ماذا لو لم تجدى الحوارات ومحاولات الإقناع بالفكر والمنطق؟!

وللإجابة عن هذا السؤال أقول، إنه على الرغم من أن التسامح قيمة إنسانية ودينية كبرى دعت إليها معظم العقائد الدينية والنظم الأخلاقية فى الحضارات المختلفة فإنه ينبغى أن يكون مشروطاً بعدم الخروج على القوانين المنظمة للحريات فى المجتمع الإنسانى ؛ فالتسامح والعفو والصفح ليس معناها أبداً السكوت عن الغلو الفكرى أو العقائدى الذى يهدد حياة البشر وإنجازاتهم الحضارية . لقد عانينا فى مصر حينما خُذع أهل بلدى الطيبين المسالمين وعلى رأسهم بعض النخب السياسية المثقفة فأعطوا أصواتهم بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م لجماعة تزيت بزى الإسلام السمح ورفعت شعارات براقية من قبيل «الإسلام هو الحل» و «نحمل الخير لمصر» فلم يجد المصريون منهم بعد ذلك إلا الإقصاء والتعصب الشديد لمصلحة الجماعة وتفضيلها وإعلانها على مصلحة المجتمع ، فكان ماكان حيث قامت عليهم ثورة شعبية عارمة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣م ليكتشف المصريون بعدها السلوك شديد العدوانية الذى اتضح أنه هو منهجهم الحقيقى وظهر ذلك فى مظاهراتهم واعتصاماتهم المسلحة التى هددوا من خلالها بأنهم لو لم يعودوا إلى الحكم سيحرقون البلد بمؤسساتها وبأهلها! ولم يكتفوا بالخطاب العدوانى الشفهى بل بدأوا فعلاً فى ممارسة الأعمال العدائية للشعب وحرق مؤسساته فى العاصمة ومختلف المدن وعواصم المحافظات ، وقد غاب عنهم تماماً فى هذه الممارسات العدائية أن مصر التى يحرقونها ويروعون أهلها هى وطنهم

وأن هؤلاء الذين يروعونهم هم من كانوا قبل عام واحد، هم من أعطوهم الثقة وأوصلوهم إلى حكم البلاد!! وقد غاب عنهم كذلك الطبيعة المسالمة لمصر وشعبها الذى تبني على مدار تاريخه الطويل التدين المعتدل، وأكد من خلال مؤسسة الأزهر وسطية الإسلام، ونبذ دوماً أى صورة من صور الغلو والتطرف والتعصب. وهاهو الشعب وقد انتصر بثورته السلمية وبمساندة جيشه الذى هو جزء لا يتجزأ من النسيج الوطنى المصرى.

ولعل الدرس المستفاد من تلك التجربة المصرية هو أن التسامح والتساهل ونبذ التعصب إنما هى قيمة ينبغى أن يتبناها الأفراد والمجتمعات مع كل صاحب رأى حر قابل للتطور والتعديل إذا ثبت خطأه، وليس مع كل صاحب فكر متحجر غير قابل للحوار والتعديل وغير قابل للتعايش مع الآخر. إن التسامح ينبغى أن يكون إذن مع كل صاحب رأى أو معتقد بشرط أن يكون مؤمناً بالحوار ولديه القابلية للتعايش مع الآخر وقبول التعددية، وليس مع المتعصب المتعطرس غير القابل للحوار والرافض للتعايش السلمى مع الآخرين.



(٣)

القرآن وتحديث الخطاب الدينى...

لاشك أن كل ما يعانىه العالمين العربى والإسلامى اليوم من مشكلات وصراعات تكاد تفتك بالعرب والمسلمين وتعوق وحدتهم، بل تعوق الحد الأدنى من الاتفاق حول خط أحمر لا ينبغى أن تتجاوزه خلافاتهم حتى لاتتأثر مصالحهم ويفقدون الحد الأدنى من الهيبة أمام شعوب العالم الأخرى، لا شك فى أن سبب كل ذلك هو تفاوت فهمهم وتفسيراتهم لأسس ونصوص شريعتهم الإسلامية التى هى فى أصلها شريعة سمحاء ومعهم أصبحت بالفعل نقيضا لذلك فى نظر كل من لا يعرف الأصول العظيمة التى تقوم عليها، واكتفى بأن يأخذ انطباعه عنها من أتباعها المعاصرين وأفعالهم الشنيعة!. ولعل السؤال الذى يلح الآن على كل مؤمن مخلص هو متى وكيف يفيق المسلمون ويعودون إلى رشدهم وإلى صحيح دينهم، دين العقل والموعظة الحسنة والحوار بالتى هى أحسن، دين الاعتصام والوحدة وليس دين التناحر والفرقة؟!!

فى اعتقادى أن خير إجابة على السؤال تكمن فى قول الإمام محمد عبده : «إن القرآن هو الدوحة والأصل الذى يرجع إليه، وهو الذى لا بد أن يرفع فوق كل خلاف. ولما كان اختلاف المجتهدين أصلا من أصول الإسلام، فقد قال الإمام «أنهم لو اجتمعوا وتناصفوا لاتفقوا وما اختلفوا».

ويا ليتهم اختلفوا فى الأوجه التى توجب الاختلاف وابتعدوا عن الشقاق والصراع، تلك الأوجه التى كان جميلا من أبى محمد عبدالله بن محمد البطليوسى الأندلسى أن يعددها لنا فى كتابه «الإنصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم»، ويحصرها فى ثمانية أوجه هى:

- ١ - الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها التأويلات الكثيرة.
- ٢ - الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز.
- ٣ - الخلاف العارض من جهة الأفراد والتركييب.
- ٤ - الخلاف العارض من جهة العموم والخصوص.

٥ - الخلاف العارض من جهة الرواية ، والمقصود من جهة رواة الحديث من حيث مدى صحة الإسناد أو فساده.

٦ - الخلاف العارض من قبل الاجتهاد والقياس.

٧ - الخلاف العارض من قبل النسخ وهو يعرض بين من أنكر النسخ ومن أثبته.

٨ - الخلاف العارض من جهة الإباحة التي من قبل أشياء أوسع الله تعالى فيها على عباده وأباحها لهم على لسان نبيه كاختلاف الناس في الأذان ووجوه القراءات السبع ونحو ذلك. والحقيقة أن الخلافات والاختلافات بين المسلمين الآن قد خرجت عن هذه الصور المشروعة ، وفي اعتقادي الشخصي أن كثرة الاختلافات والخلافات إنما ترتبت على دخول غير المختصين مجال الدعوة والتفسير. ولو التزم المسلمون بالشروط القرآنية للمجددين الموكل إليهم الإفتاء والتفسير لما وجدنا أنفسنا أمام كل هذه الشيع والفرق المتناحرة من التيارات الإسلامية والجماعات الإسلامية التي تتراوح بين الاعتدال والتطرف إلى حد كاد يضيع معه «الإسلام الصحيح» ، وهذه الشروط حددتها في اعتقادي آيتين هما :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة

السجدة: آية : ٢٤].

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: آية : ٧٣].

١ - فالشرط الأول ورد في الآية الأولى في قوله (يهدون بأمرنا) أي أن يكون منهمجهم في الدعوة إلى الله مستمدا من ما أنزل الله في كتبه وما أمر به رسله وليس من خارج هذا أو ذاك أو على خلاف منهج القرآن والرسول.

٢ - أما الشرط الثاني فورد في الآية الأولى أيضا في قوله (لما صبروا) وهو يعني أنه لا إمامة في الدين لمن لم يصبر على الدعوة إلى الله ما بين تقصير وضعف في الاتباع ، وخصومة وتجبر في الأعداء. إن الصبر هنا قد يكون دلالة على الصبر في تأمل الآيات والأحاديث قبل الإفتاء وقبل الخوض في أي حديث حول ما أتى به الله والرسول. فالدعوة ليست موكولة أبدا لمن وقف على ظاهر الآيات دون باطنها أو على طريقة «لا تقربوا الصلاة» أو ببساطة ليست لمن اتبع منهج «اخطف واجرى» بلغة العامة ، فالتعرض للحديث في الدين ينبغي أن يكون أساسه المعرفة العميقة بكل ما يحيط بآياته سبحانه وتعالى والصبر على هذه المعرفة حتى يتقنها.

٣ - أما الشرط الثالث فى قوله تعالى الآية الأولى ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: آية: ٢٤]، وهو اليقين فى نصر الله وقدرته على هداية خلقه ونصر دعوته وتأييد من يقوم بهذه الدعوة. إن التيقن يعنى فلسفيا الإيمان العميق مصحوبا بالحجة والدليل العقليين وهذا اليقين هو سند صاحبه لأن يدعو إلى الله حق الدعوة، إذ لا يمكن أن يقنع الداعية أحدا بشيء هو متشكك إزاءه أو ليس على قناعة ويقين تام به. إن اليقين يورث اليقين ببساطة فلا يتعرض للدعوة إلا متيقن من عقيدته ومن نصر الله له.

٤ - أما الشرط الرابع فقد ورد فى قوله تعالى فى الآية الثانية (فعل الخيرات)، إذ إن الدعوة إلى الله لا يكفى فيها القول دون الفعل وحتى لا تتناقض الأقوال مع الأفعال، فإن الدعوة إلى الله ينبغى أن يتوافق فيها أقوال الداعية المستندة إلى قال الله وقال الرسول بفعل الخيرات والمشاركة فى شتى مجالات الحياة بما يعود بالخير على الناس كافة.

٥ - أما الشرط الخامس فقد ورد فى قوله تعالى (وإقام الصلاة)، فالمعروف أن عماد الدين الصلاة، ومن أقامها فقد أقام الدين وبها يمكن قيادة المجتمع المسلم إلى ربه فى ليله ونهاره وذلك فى صورة عبادة منتظمة يراجع فيها الإنسان نفسه على منهج الله. وفيها اتصال بين العبد وربّه إذا داوم عليها الإنسان ظل محافظا على هذه الصلة.

٦ - أما الشرط السادس فقد ورد فى قوله تعالى (وإيتاء الزكاة)، وهذا شرط عملى يتبين من خلاله مدى صدق المجدد فى الدعوة إلى الله، فلا إمامة بدون أعمال أركان الدين ولا إمامة دون بذل دائم وعطاء سخى من كل ما يملكه الإنسان فداء لمبادئه وإلا صارت هذه المبادئ مجردة لا وجود لها ولا معنى لها.

٧ - أما الشرط السابع فقد ورد فى قوله تعالى (وكانوا لنا عابدين) إذ إن المداومة على العبادة هنا بمعناها العام لا تعنى ركوعا وسجودا وقيامًا فى الصلاة، أو دفعا للأموال فى الزكاة فحسب، وإنما هى كل قول أو فعل يصدر من الإنسان ابتغاء وجه الله وطلبًا لمرضاته فهو عباده أو بتعبير آخر هى كل حركة فى حياة الإنسان وفى حياة الأمة إذا توجهت بهذه الحركة إلى الله^(١).

وهذه الشروط السبع تدور حول أمرين اثنين ينبغى أن يتوافرا فيمن يتعرض لأمر الدعوة والتفسير؛ أولهما: العلم الدقيق واليقين بآيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ، والثانى:

(١) انظر تفاصيل أكثر حول هذه الشروط فى: د. محمد عطا أحمد يوسف: دور المفسرين فى تجديد الخطاب الدينى، منشور ضمن كتاب تجديد الخطاب الدينى بين الفكر الفلسفى والاجتماعى، تحرير د. محمد ياسر الخواجه، مصر العربية للنشر والتوزيع بالقاهرة ٢٠١١م، ص ١٠٨ - ١٠٩.

أن يكون قدوة في القول والفعل وأن لا ينفصل لديه الدعوة إلى الله عن التمسك بأركان الدين وفعل الخيرات وأن تكون كل حركة في حياته لوجه الله وليس لوجه أى شىء دنيوى (شهرة كان أو منصباً، أو غير ذلك).

والحقيقة أننى أعجب من كثرة الخلافات والشقاق بين المسلمين الذين يدعى كل فريق منهم أنه الأكثر فهما ومعرفة بحقيقة الدين من غيره، ويصل فى غيه حد تكفير الآخرين، بينما الأمر عند أعدى أعداء الإسلام لم يصل إلى ذلك الحد من الاستهانة بالدين الإسلامى والتعصب ضده!

وكم كان لوفيكو مراكشى (١٦١٢م - ١٧٠٠م) صاحب كتاب (مقدمة فى دحض القرآن) موضوعياً وهو يكتب مقدمته للترجمة التى قام بها للقرآن الكريم تحت عنوان «القرآن نص عالمى» حيث يقول:

«إن الدين الإسلامى احتفظ بكل ما هو أكثر عقلانية واحتمالاً فى المسيحية، وبكل ما يبدو فى نظرنا موافقاً لقانون وسنة الطبيعة، وقد استبعد من عقيدته جميع ألوان الغموض الموجودة فى الإنجيل، والتى تبدو لنا غير معقولة وغير مفهومة، كما أنه استبعد من الأخلاق كل المبادئ المتزمتة والتى يصعب على الناس تطبيقها، مما جعل الوثنيين اليوم يشعرون أنهم أكثر ميلاً إلى التنكر لوثنيتهم واعتناق الإسلام بصدر رحب واعتناق الشريعة المحمدية أكثر من الشريعة الإنجيلية^(١).

وفى كتابه «دحض القرآن» يقول مراكشى:

«لقد اعتقدت دائماً أن القرآن والإنجيل حين يعرضان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، ويجب ألا نشك فى أن كتاب «محمد» لا يقدم أفكاراً يصعب على العقل فهمها، فمثلاً لا يوجد إلا إله واحد حكيم وقادر، خالق الأشياء كلها ومدبرها، ويجب أن يُصلى له بخشوع وخضوع. وأن يكون الإنسان متسامحاً مع الفقراء، ويؤدى مناسك الحج، ويظهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة، وكذلك كل الفضائل السهلة الأخرى؛ فلا يجوز أن يُؤذى إنسان، بل يجب أن يحُمى من السرقة والزنى وأى جريمة أخرى أيا كانت، ويجب أن يُحْتَقَر كل ما فى الدنيا باعتباره عابر وغير ثابت ويستمسك فقط بالأعمال الصالحة التى لن يضيع أجرها. وسيكون لنا فى النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنجزى على ما

(١) نقلاً عن: عبدالرحمن بدوى: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر،

فعلنا؛ فالطيبون سيجدون في السماء نعيما مقيما وما يشتهون، وسيذوق الأشرار في جهنم عذابا لا نهاية له، كل هذه المبادئ وغيرها تنتشر في القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من المبادئ الإنجيلية... ولكل ذلك فغير المؤمنين يفضلون محمد ويعتقدون دينه من كل قلوبهم»^(١).

إن هذا الفهم البسيط والعميق في الوقت ذاته لجوهر الدين الإسلامي يكاد يكون غائبا عن دعاة من المسلمين الآن نظراً لانشغالهم بخطاب دعوى سياسى يدعو إلى الصراع مع الآخر وتكفيره بدلا من محاولة احتوائه وجذبه عن طريق الحوار الهادئ والقدرة على المصالحة.

لقد افتقد الخطاب الدينى المعاصر اللغة السوية للخطاب وجنح إلى لغة صراعية تنافسية بين جماعات وتيارات الإسلام السياسى المعاصر، وغاب صوت العقل والحكمة والدعوة إلى الله والدين بالموعظة الحسنة.

ولذا أرى أن إصلاح وتحديث هذا الخطاب وتطويره ينبغي أن يقوم على أسس خمس هي:

١ - العودة إلى الاستناد إلى صحيح الدين (القرآن والسنة) قبل ظهور الخلاف بين الفرق والتأكيد دائما على أن خلافاتهم هي مجرد اختلاف فى الرأى ليس فيما يخص جوهر العقيدة وإنما ما يخص بعض الفروع.

٢ - مراعاة التدرج فى الخطاب الدينى بحيث يكون موافقا للمخاطب، فمخاطبة عامة الناس غير مخاطبة خاصتهم، إذ ينبغي أن يقتصر الخطاب الموجه لعامة الناس على شئون دينهم الحياتية.

٣ - الحرص على عقلانية الخطاب الدينى والبعد به عن إشاعة الخرافات والخزعبلات والبعد عن التقليد ومحاربة الجمود، مع الحرص على إبراز القضايا المتجددة والتعبير عنها على أساس من صحيح الدين.

٤ - نبذ التعصب والتسامح مع أصحاب الآراء والمعتقدات الأخرى إعمالا لمبدأ «أن الحقيقة حمالة أوجه» ولبدأ الاستفادة من كل الطاقات والديانات لخدمة المجتمع المسلم فى أى دولة من الدول الإسلامية.

٥ - استشراف المستقبل كضرورة من ضرورات تطوير الحاضر، مما يعنى التقليل من قداسة الماضى لصالح أن بالمستقبل إمكانات ينبغي أن نستشرفها لنعمل من خلالها على نشر الدعوة الإسلامية وفق ضرورات الحاضر وإمكانات المستقبل والتنبؤ بمساراته المختلفة.

إن هذا الأسس يمكن من خلالها تطوير الدعوة الإسلامية بما يتوافق مع متطلبات العصر الحاضر، وممكناته المستقبلية، وليكن مرتكزنا الأساسى فيها جميعا القرآن الكريم وسنة

(١) نقلا عن نفس المرجع السابق ص١٤٦.

نبيه ﷺ دون الخوض في كل صور الخلاف والاختلاف بين المفسرين بفرقهم وتياراتهم المختلفة. وإننى لأطمح إلى أن تكون هذه الأسس نقطة مضيئة لبداية طريق نصل في نهايته إلى فهم إيجابى وبناء لخدمة «القرآن» كنص دينى ولخدمة أتباعه فى أنحاء العالم بما يجعلهم قادرين على النفاذ إلى المستقبل بقوة اليقين، ومن ثم قادرين: أولاً، على نبذ الخلافات فيما بينهم كمقدمة ضرورية للوحدة وتحقيق التقدم الذاتى، وثانياً، على التأثير فى التقدم الإنسانى بالدعوة الصالحة إلى الله الواحد الأحد، وبأن الدين الإسلامى هو دين العقل والعلم وليس دين الخرافة والتعصب، دين التسامح والمرونة الفكرية وليس دين الجمود والانغلاق.



(٤)

إصلاح وتحديث الخطاب الدينى (رؤية فلسفية)

إن إصلاح وتحديث الخطاب الدينى أصبح ضرورة ينبغى الاتفاق عليها والعمل بها، إذ مما لا شك فيه أن عصرنا الحالى الذى يتميز بظهور وبروز النزعة الدينية بشكل لافت جداً، أصبح عصرًا اختلط فيه الحابل بالنابل، اختلط فيه دعاة التدين بالمتدينين حقًا، اختلط فيه من يتمسكون بمظاهر الدين لأغراض سياسية ويستغلونه استغلالًا قد يسيء إلى الإسلام الحقيقى أكثر مما ينفعه، بمن يقبضون على جوهر الدين ويدعون إلى الله باعتدال وتعقل. لقد طفا على السطح ذلك الخلاف التقليدى بين السنة والشيعة، بين مراتب السنة وفرقها المختلفة، وبين مراتب الشيعة وفرقها المختلفة، وأصبح ذلك الخلاف - الذى هو فى أساسه اختلاف فى الرأى قد لا يفسد للود قضية - خلافاً فى العقيدة ومؤسسًا لحالة من الصراع السياسى تهدد الأمة بالفرقة والحروب فيما بين طوائفها. إن تأجيج هذه الصور من الخلاف المهددة بالتناحر والصراع أساسها ذلك الخطاب الدينى الذى ينتهجه أنصار الفرق المختلفة بما يتضمنه من تعصب للرأى إلى حد الجمود، ومن انعدام النظر إلى المصلحة العامة لنشر الإسلام الصحيح والتمسك بجوهر الدين وإبراز القاسم المشترك الأعظم الذى لا خلاف عليه بين هذه الفرق المتناحرة بلا داعى من دين ولا مراعاة لمصلحة!

ولما الأمر يتعلق بالخطاب الدينى لفظًا ومضمونًا وغاية لكل فريق، إذن فالعلاج يكمن فى محاولة لدرء الخلاف والعودة إلى صحيح الخطاب الدينى. ولعل السؤال الأول هنا: ماذا نعنى بالخطاب الدينى!؟

إن مفهوم «الخطاب» فى الدراسات الفلسفية والعلمية الحديثة يدخل فى نطاقه «كل الأقوال المكتوبة والمسموعة بكل الرموز والعبارات، بل أساليب السلوك التى ينظر إليها المجتمع على أنها نص Text يخضع لنفس أساليب الخطاب»^(١).

وعلى ذلك فإن الخطاب الدينى هو الأقوال والنصوص المكتوبة والمسموعة التى تصدر عن المؤسسات الدينية أو أفرادها وتكشف عن وجهات نظر محددة إزاء أية قضية دينية أو

(١) د. أحمد زايد: خريطة الخطاب الدينى فى مصر، ضمن كتاب «حال تجديد الخطاب الدينى فى مصر» تحرير د. نادية مصطفى ود. إبراهيم البيومى غانم، مركز البحوث والدراسات السياسية ومكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٤٢١.

ديوية تدافع عنها عقيدة معينة سواء جاءت في شكل كتب أو نشرات أو خطب أو مقالات صحفية ، سواء تم التعرف عليها وتلقيها مقروءة أو مسموعة. كما يدخل في إطار الخطاب الدينى وخاصة فى عصرنا الراهن أى أقوال أو نصوص مقروءة أو مسموعة أو بادية فى سلوك أى شىء يرتبط بالدين سواء كان فردا أو مؤسسة أو جمعية خيرية دينية فى كل ما يرتبط بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية مرتكزا على مبادئ دينية. وينبغى الإشارة هنا إلى أن الخطاب الدينى فى عصرنا أصبح مشاعا حيث يكثر المنتمون إليه يوما بعد يوم من أناس كثيرين ليسوا مختصين ولا هم أهل للاختصاص ، فلقد تزاى الكثيرون بزى الدين وأطلقوا على أنفسهم لفظ دعاة للدين والتدين! وهذا فى اعتقادى أسوأ ما ابتلى به عصرنا الراهن إذ أصبحت التجارة بالدين عملا لكل من لا يجد له عمل ، فيلبس الجلباب ويطيل الذقن ويدلوا بدلوه عبر قراءات مقتضبة وسريعة وغير واعية لأى كتب دينية سواء صدرت من مختصين أو من غير مختصين. وهذا مما زاد أمر الخطاب الدينى سوءاً وجهالة فى عصرنا وزاد بالتالى من اختلاط الحابل بالنابل ، وساهم فى البلبلة التى نراها الآن وخاصة بين الشباب المسلم سواء فى عالمنا العربى أو فى العالم الإسلامى بوجه عام.

ولذلك فقد أصبح الأمر جد خطير وخاصة فيما يتعلق بالخطاب الدينى الإسلامى على وجه الخصوص ؛ إذ أصبح عاملا أساسيا من عوامل الفرقة فى المجتمع عموما وفيما بين المسلمين على وجه الخصوص ، أصبح عاملا من عوامل الصراع والتناحر وتقسيم الأمة إلى مسلمين وغير مسلمين من ناحية وقد يكون هذا أمر طبيعى ، لكنه يثار اليوم على أنه تمييز بين مسلمين وكفار ، ثم زاد الأمر سوءا بتعدى هذا التقسيم إلى تقسيم المسلمين أنفسهم إلى فرق يكفر بعضها بعضا ويزعم كل فريق أنه وحده المسلم وأن الباقين خارجون على صحيح الدين وينبغى مفارقتهم بل وقتالهم!! وقد زاد تعصب المتمترسين حول هذه الخطابات التى تفرق أكثر مما تجمع وتجذر أسباب الصراع أكثر مما تشير إلى أسباب التلاقى وتؤكد على المشترك حينما ارتبط هذا الصراع «الخطابى» بصراع «المصالح السياسية» وكلما ازداد الارتباط بين أى نوع من أنواع هذا الخطاب الدينى بتحقيق أهداف سياسية آنية لهذا الطرف أو ذاك ازداد حدة وخصومة مع بقية صور الخطاب ؛ فهذا «إخوانى» وهذا «سلفى» وذاك «علمانى» وهذا «ليبرالى» وذاك «إسلامى» ثم هذا سلفى جهادى ، وهذا جماعات إسلامية ، وهذا جماعات إسلامية جهادية تكفيرية ، وذاك جماعات إسلامية إصلاحية ،

وهذا سلفى معتدل وذاك سلفى متطرف.. سيل كبير من التقسيمات والتصنيفات التي شرذمت حتى الإسلاميين فيما بينهم وشرذمت رؤيتهم للآخرين لدرجة سدت الأفق أمام أى محاولة للتوحد والالتقاء بين كل هذه الفرق المتشرذمة المتناحرة فيما بينها سواء داخل التيار الواحد أو بين التيارات المختلفة.

إنها محنة الخطاب الدينى فى عصرنا الراهن، فكيف يكون الحل، وكيف نعود إلى كلمة سواء متجاوزين هذا التناحر وهذا التشرذم الذى يكاد يقضى على الأخضر واليابس بين المسلمين بعضهم بعضا، وبينهم وبين غيرهم ممن يعيشون معهم على نفس الأرض ويتنفسون معهم نفس الهواء ويشربون معهم من نفس النهر؟!!

وفى اعتقادى أنه إذا أردنا إصلاحا للخطاب الدينى حقا واتفقت إرادتنا على ذلك، يكون فى ذلك نقطة البداية والانطلاق. ولا شك أن الجميع يدرك الآن أكثر من أى وقت مضى أننا أصبحنا بحق فى حاجة إلى إصلاح هذه الصور المختلفة والمتناحرة للخطاب الدينى عبر العودة إلى صحيح الدين. ولا شك أن الجميع متفقون على أن صحيح الدين يتمثل فى أصليه الكبيرين: القرآن والسنة.

ولعل هذه الأقوال الحكيمة التى أطلقها الإمام محمد عبده باعتباره الأقرب إلى عصرنا تشكل أساسا يمكن الاتفاق عليه حول القرآن كمصدر رئيس لكل ما هو خطاب إسلامى. لقد قال الإمام عن القرآن^(١):

- إن القرآن كلام أبدى رقم على صفحات الزمان إلى قيام الساعة خطابا لجميع البشر.
- إن خطاب القرآن لا يختص بواقعة، بل يصح أن يكون خطابا لكل الناس.
- القرآن هو الدوحة والأصل الذى يرجع إليه، وهو الذى يحمل فى الدعوة ويجرى على أحكامه.
- القرآن ينبغى أن يؤخذ من أقرب وجوهه، وإياك من التعمق فى التأويل الذى يجرى إلى البعد عن معانيه الصحيحة.
- لا بد أن يرفع القرآن فوق كل خلاف.

(١) وردت هذه الأقوال للإمام فى كتاب: تاريخ الأستاذ الإمام (ص ٦٤٢ - ٦٥١) ونقلناها عن الكتاب التذكارى الذى أشرف عليه د. عاطف العراقى: الشيخ محمد عبده، الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ١٩٩٥م، ص ٤٠٥.

كما أنه يمكن الاتفاق أيضا على مقولتين مهمتين له وجههما إلى كل من يتعرض للعظة الدينية مستخدما الخطاب الديني. لقد قال الإمام^(١):
من السنن الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل: أن الاتفاق والاعتصام والاتحاد عماد ترقى الأمم وفوزها. والتخاذل عنه انحطاطها وذلتها سواء في الماضي والحاضر والمستقبل. وعلى ذلك قال حينما سئل عن اختلاف المجتهدين: لو اجتمعوا وتناصفوا لاتفقوا وما اختلفوا. - التعصب في المذهب يعنى الشخص حتى عن لغته.. ومن كان مطلبه الحق، ولم تدخل نفسه بينه وبين الحق، أمكنه أن يتفق مع من كان مثله، ولا يتأتى الاختلاف بين طالبي الحق.

إذن فإن أول مبادئ إصلاح الخطاب الديني وتحديثه فى عصرنا هو: إدراك أن القرآن الكريم هو الأصل الذى ينبغى العودة إليه والاستناد إليه فى كل ما اختلفنا حوله؛ فهو الكلام الأبدى الصالح لكل زمان ومكان، وهو الذى ينبغى أن نرفعه فوق كل خلاف، وهو الذى ينبغى أن يؤخذ من أقرب وجوهه دون أن تحمل نصه فوق ما يحتمل، ودون أن تذهب فى التأويل مذهباً يجرك وغيرك إلى البعد عن معانيه الصحيحة. وعلينا فى التعامل مع القرآن الكريم دوماً أن نتذكر أننا مدعوين إلى الاعتصام والاتحاد فهذا هو سبيلنا إلى الرقى والتقدم، وأن نبتعد عن أى تعصب لأن التعصب يعنى الإنسان ويخرجه عن إطار الفهم حتى فيما يتعلق باللغة المستخدمة فى الحوار. ولن نبتعد عن التعصب إلا إذا أبعدنا الأهواء والأغراض الدنيوية للنفس وهى عادة أمارة بالسوء، أبعدناها عن الحق الذى نبتغيه ونبتغى توضيحه من كتاب الله عز وجل. ففى إبعاد النفس عن ما نحن بصدده من فهم آيات القرآن وتأويله مدعاة كبرى لدرء الاختلاف المزعوم بين أصحاب الرؤى والمختلفين فى التفسير لأن الواقع - فيما يشير الإمام حقا - هو أن النفس وأهواءها هى التى تقف بينهم وبين إدراك الحق فإن أبعدوها اقتربوا جميعاً من الحق لأن الحق أبداً لا يضاد الحق.

ولعل فيما قاله الإمام الشافعى صاحب «الرسالة» عن القرآن كأساس للبيان العربى ما ينبغى أن نتعلم منه وينبثق عنه خطابنا حول القرآن الكريم حتى يكون ذلك أساساً من أسس الخطاب الدينى المستند مباشرة على القرآن نفسه. يقول الشافعى: «.. أن القرآن هو الأصل لكل أقسام البيان العربى وأنه يخاطب العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أنه يخاطب بالشىء منه عاماً ظاهراً

(١) نفسه، ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

يراد به العام الظاهر. ويستغنى بأوله عن آخره؛ وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. وكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره. وتبتدئ الشئ من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشئ من كلامها يبين آخر لفظها فيه عن أوله. وتكلم الشئ تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ كما تعرف الإشارة. ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها. وتسمى الشئ الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمى بالاسم الواحد المعانى الكثيرة. وكانت هذه الوجوه التي وصفت اجتماعها في معرفة أهل العلم منها به، وان اختلفت أسباب معرفتها، معرفة واضحة عندها ومستنكرا عند غيرها ممن جهل هذا من لسانها، وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة^(١).

ولكل المتعرضين لفهم الخطاب القرآني بهذا اللسان العربي المبين أن يطلعوا بداية على شرح الشافعي لهذه الوجوه في القرآن الكريم في أبواب رتبها كالتالي: باب بيان ما نزل من الكتاب عاما يراد به العام ويدخله الخصوص- باب بيان ما نزل من القرآن عام الظاهر وهو يجمع العام والخصوص- باب ما نزل من القرآن عام الظاهر يراد به كله الخاص - باب الصنف الذى يبين من سياقه معناه - باب الصنف الذى يدل لفظه على باطنه دون ظاهره - باب ما نزل عاما فدللت السنة خاصة على أنه يراد به الخاص.

أما ثانى مبادئ الإصلاح للخطاب الدينى فى عصرنا فهو فى اعتقادى الإقرار بأن الاتفاق على أن الأصل فى الإقرار بالسند الأساس للجميع هو ما جاء بالقرآن الكريم والسنة النبوية، لا يعنى إلغاء حق الاختلاف فى التفسير أو فى التأويل؛ فالحق فى الاختلاف حتى فى فهم وتأويل آيات القرآن نابع فى الأساس من أن الله خلقنا أفرادا متفاوتى الرؤى والأفكار، ومن ثم لكل قدراته فى الفهم وحقه فى التأويل والاختلاف على أسس سنعددها فيما بعد، لكن أهمها ما أقره الإمام الشافعي ذاته حينما ختم رسالته بالكلام عن الاختلاف؛ فبين أن الاختلاف من وجهين علينا أن نفهمهما؛ أحدهما محرم والآخر غير محرم؛ أما الاختلاف المحرم فهو كل ما أقام الله به الحجة فى كتابه أو على لسان نبيه منصوصا بينا، فمن علمه لا يحل له الاختلاف فيه. والثانى هو الاختلاف فيما

(١) نقلا عن: مصطفى عبدالرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٩م.

يحتتمل التأويل أو يدرك قياساً فيذهب المتأول أو القائس إلى معنى يحتمله الخبر أو القياس وإن خالفه فيه غيره^(١).

إذن فحق الاختلاف مكفول وهو ما يسمح بأن يختلف المختلفون حول فهم هذا النص أو ذاك بشرط أن يكون هذا النص من النصوص التي تحتتمل التأويل ولا تتعلق بما «أقام به الله الحجة في كتابه أو على لسان نبيه». وثمة أسباب حقيقية تدعو إلى الاختلاف بين المؤولين والمفسرين من العلماء موجودة في النص الديني ذاته ، وقد نبه إلى هذه المواضع التي ينشأ عنها الاختلاف بين العلماء أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي الأندلسي المتوفى سنة (٥٢١هـ - ١٢١٧م) في كتاب له بعنوان «الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم»^(٢) ، وقد حصرها في ثمانية أوجه هي^(٣):

١ - الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها التأويلات الكثيرة سواء من حيث الاشتراك في موضوع اللفظة المفردة بأن تكون موضوعة لمعان مختلفة متضادة أو غير متضادة، أو من حيث الاشتراك العارض من قبل اختلاف أحوال الكلمة دون موضوع لفظها، أو من حيث الاشتراك العارض من قبل تركيب الكلام وبناء بعض الألفاظ على بعض.

٢ - الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز. والمجاز ثلاثة أنواع؛ نوع يعرض في موضوع اللفظة، ونوع يعرض في أحوالها المختلفة من إعراب وغيره، ونوع يعرض في التركيب وبناء بعض الألفاظ على بعض.

٣ - الخلاف العارض من جهة الأفراد والتركيب. ووجه الخلاف العارض في هذا الموضوع أنه ربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية أو بمفرد الحديث، وبنى آخر قياسه على جهة التركيب بأن يأخذ بمجموع آيتين أو بمجموع حديثين أو بمجموع آيات أو بمجموع أحاديث، فيفضي هذا إلى الخلاف فيما ينتج عن هذا الأفراد أو هذا الجمع

(١) الشيخ مصطفى عبدالرازق: نفس المرجع، ص ٢٤٤.

(٢) طبع هذا الكتاب في مطبعة الموسوعات بمصر عام ١٣١٩هـ - هامش ص ١٨٠، من كتاب د. مصطفى عبد الرزاق السابق الإشارة إليه.

(٣) نقلاً عن الشيخ مصطفى عبد الرزاق، نفس المرجع السابق، ص ١٨٠ - ١٩٠.

٤ - الخلاف العارض من جهة العموم والخصوص وهو نوعان؛ أحدهما يعرض فى موضوع اللفظة المفردة والثانى يعرض فى التركيب.

٥ - الخلاف العارض من جهة الرواية. والمقصود هنا الخلاف الذى يعرض من جهة رواية الحديث من حيث مدى صحة الإسناد أو فساده. ولذلك علل عديدة من أهمها:

- نقل الحديث على المعنى دون اللفظ بعينه، فربما اتفق أن يسمع الراوى الحديث فيتصور معناه فى نفسه على غير الجهة التى أرادها، وإذا عبر عن ذلك المعنى بألفاظ أخرى كان قد حدث بخلاف ما سمع من غير مقصد منه وذلك أن الكلام الواحد قد يحتمل معنيين أو ثلاث وقد يكون فيه اللفظة المشتركة.. الخ.

٦ - الخلاف العارض من قبل الاجتهاد والقياس وهو نوعان؛ أحدهما الخلاف الواقع بين المفكرين للاجتهاد والقياس والمثبتين لهما، والثانى خلاف يعرض بين أصحاب القياس فى قياسهم.

٧ - الخلاف العارض من قبل النسخ وهو يعرض بين من أنكر النسخ ومن أثبته، ويعرض بين القائلين بالنسخ من جهة اختلافهم فى الأخبار: هل يجوز فيها النسخ كما يجوز فى الأمر والنهى أم لا؟ واختلافهم حول نسخ السنة للقرآن، واختلافهم فى أشياء من القرآن والحديث، ذهب بعضهم إلى أنها نسخت وبعضهم إلى أنها لم تنسخ.

٨ - الخلاف العارض من قبل الإباحة التى من قبل أشياء أوسع الله تعالى فيها على عباده وأباحها لهم على لسان نبيه كاختلاف الناس فى الأذان ووجوه القراءات السبع، ونحو ذلك.

وبالطبع فإن هذه المواضع التى قد تسبب الاختلاف بين المفسرين والتى عدناها فيما سبق ليست إلا نتيجة لتشعب الحاجات التشريعية للأمة الإسلامية منذ أن بدأت تتوسع وتخرج بالعرب من طور البداوة والامية إلى اتصالهم بالأمة الأخرى التى كان لها حظ كبير من العلم والمدنية. ولا شك أن هذه الخلافات والاختلافات كانت من بواعث النهضة الأولى لنشأة الحضارة العربية الإسلامية بدءاً من نشأة العلوم الإسلامية العربية كعلم أصول الفقه وعلوم الحديث التى استندت كلها أو معظمها على الاجتهاد كأصل من أصول الشرع، هذا الاجتهاد الذى يبيح القياس والاستنباط العقليين إلى جانب الوحي سواء بسواء.

إن مجرد أن ندرك أن هذه هى المواطن التى يجوز فيها الاختلاف فى رأى فيما بين فقهاء الرأى فى الإسلام يعنى أنه من المحرم علينا الخوض فى غيرها إلا إذا جد جديد

يحتم ذلك ويستلزمه. ولما كان القرآن هو الكتاب الخاتم والصالح لأي زمان وأى مكان فإنه لن توجد مواضع جديدة للاختلاف إلا من تجدد الظروف التي يفسر المفسرون الآيات في ظلها، فالاجتهاد هو خطاب النهضويين من المفسرين بما لا يخرج عن صحيح الدين ونصوصه القاطعة.

والجدير بالذكر هنا أن بالقرآن نفسه شروطا للمجددين الموكول إليهم الإفتاء والتفسير ومواكبة كل جديد يطرأ على حياة البشر بالقياس والاجتهاد. فما هي هذه الشروط؟! لقد حددها القرآن في آيتين هما:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة: آية: ٢٤].

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: آية: ٧٣].

٩ - فالشرط الأول ورد في الآية الأولى في قوله (يهدون بأمرنا) أي أن يكون منهمجهم في الدعوة إلى الله مستمدا من ما أنزل الله في كتبه وما أمر به رسله وليس من خارج هذا أو ذاك أو على خلاف منهج القرآن والرسول.

١٠ - أما الشرط الثاني فورد في الآية الأولى أيضا في قوله (لما صبروا) وهو يعنى أنه لا إمامة في الدين لمن لم يصبر على الدعوة إلى الله ما بين تقصير وضعف في الاتباع، وخصومة وتجبر في الأعداء. إن الصبر هنا قد يكون دلالة على الصبر في تأمل الآيات والأحاديث قبل الإفتاء وقبل الخوض في أى حديث حول ما أتى به الله والرسول. فالدعوة ليست موكولة أبدا لمن وقف على ظاهر الآيات دون باطنها أو على طريقة «لا تقربوا الصلاة» أو ببساطة ليست لمن اتبع منهج «اخطف واجرى» بلغة العامة، فالتعرض للحديث في الدين ينبغى أن يكون أساسه المعرفة العميقة بكل ما يحيط بآياته سبحانه وتعالى والصبر على هذه المعرفة حتى يتقنها.

١١ - أما الشرط الثالث في قوله تعالى الآية الأولى (وكانوا بآياتنا يوقنون)، وهو اليقين في نصر الله وقدرته على هداية خلقه ونصر دعوته وتأييد من يقوم بهذه الدعوة. إن التيقن يعنى فلسفيا الإيمان العميق مصحوبا بالحجة والدليل العقليين وهذا اليقين هو سند صاحبه لأن يدعو إلى الله حق الدعوة، إذ لا يمكن أن يقنع الداعية أحدا بشيء

هو متشكك إزاءه أو ليس على قناعة ويقين تام به. إن اليقين يورث اليقين ببساطة فلا يتعرض للدعوة إلى متيقن من عقيدته ومن نصر الله له.

١٢ - أما الشرط الرابع فقد ورد في قوله تعالى في الآية الثانية (فعل الخيرات)، إذ أن الدعوة إلى الله لا يكفى فيها القول دون الفعل وحتى لا تتناقض الأقوال مع الأفعال، فإن الدعوة إلى الله ينبغى أن يتوافق فيها أقوال الداعية المستندة إلى قال الله وقال الرسول بفعل الخيرات والمشاركة فى شتى مجالات الحياة بما يعود بالخير على الناس كافة.

١٣ - أما الشرط الخامس فقد ورد فى قوله تعالى (وإقام الصلاة)، فالمعروف أن عماد الدين الصلاة، ومن أقامها فقد أقام الدين وبها يمكن قيادة المجتمع المسلم إلى ربه فى ليله ونهاره وذلك فى صورة عبادة منتظمة يراجع فيها الإنسان نفسه على منهج الله. وفيها اتصال بين العبد وربّه إذا داوم عليها الإنسان ظل محافظا على هذه الصلة.

١٤ - أما الشرط السادس فقد ورد فى قوله تعالى (وإيتاء الزكاة)، وهذا شرط عملى يتبين من خلاله مدى صدق المجدد فى الدعوة إلى الله، فلا إمامه بدون أعمال أركان الدين ولا إمامة دون بذل دائم وعطاء سخى من كل ما يملكه الإنسان فداء لمبادئه وإلا صارت هذه المبادئ مجردة لا وجود لها ولا معنى لها.

١٥ - أما الشرط السابع فقد ورد فى قوله تعالى (وكانوا لنا عابدين) إذ إن المداومة على العبادة هنا بمعناها العام لا تعنى ركوعا وسجودا وقيامًا فى الصلاة، أو دفعا للأموال فى الزكاة فحسب، وإنما هى كل قول أو فعل يصدر من الإنسان ابتغاء وجه الله وطلبًا لمرضاته فهو عباده أو بتعبير آخر هى كل حركة فى حياة الإنسان وفى حياة الأمة إذا توجهت بهذه الحركة إلى الله^(١).

ولو دققنا النظر فى هذه الشروط القرآنية لوجدناها تدور حول أمرين اثنين على كل من يتعرض للخطاب الدينى والدعوة إلى الله أن يتحلى بهما هى: العلم الدقيق واليقينى بآيات الله وبأحاديث نبيه، والثانى أن يكون قدوة فى القول والفعل وأن لا ينفصل لديه الدعوة إلى الله عن العمل بها متمسكا فى هذه الأعمال بأركان الدين وفعل الخيرات وأن تكون كل

(١) انظر تفاصيل أكثر حول هذه الشروط فى: د. محمد عطا أحمد يوسف: دور المفسرين فى تجديد الخطاب الدينى، منشور ضمن كتاب تجديد الخطاب الدينى بين الفكر الفلسفى والاجتماعى، تحرير د. محمد ياسر الخواجه، مصر العربية للنشر والتوزيع بالقاهرة ٢٠١١م، ص ١٠٨ - ١٠٩.

حركة فى الحياة إنما هى لوجه الله وليس لوجه أى شىء دنيوى ، أى ليس لوجه الشهرة أو لوجه جمع الأموال أو لوجه منصب سياسى أو دىنى يريد أن يصل إليه. إذ إن أسوأ ما يمكن أن يوصف به أى متخصص فى الخطاب الدينى هو التجارة بالدين واستخدامه كوسيلة لتحقيق أى أغراض شخصية دنيوية. ولنقيس على هذه الشروط كل ما لدينا من خطباء ودعاة لنكتشف أن الغالبية العظمى منهم إنما عملهم لوجه أنفسهم وليس لوجه الله.

والمطلوب أن يعود الجميع ليكونوا دعاة وخطباء لوجه الله ولنصرة شريعته وحينئذ سيكسبون حب الله وحب الناس وتنتشر دعوتهم ويصبح الخطاب الدينى خطابا إصلاحيا حقا لأنه لا إصلاح على يد من يقول ما لا يفعل!!

وإذا كانت هذه الشروط تتعلق بمن يتعرضون فى الخطاب الدينى للتفسير والإفتاء من وجهة نظر قرآنية، فماذا عن وجهة نظر المفكرين والفقهاء؟!

إن ابن رشد زعيم التيار الفلسفى العقلانى وفقه الأندلس يرى أن يقتصر التأويل العقلانى للقرآن على الفلاسفة واستند فى ذلك على قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [سورة آل عمران: آية: ٧]؛ إذ أن مهمة التأويل هى رفع اللبس الممكن بخصوص بعض النصوص الدينية، ويرى ابن رشد أن البرهان وهو أداة الفلسفة الأساسية هو الوسيلة اليقينية التى تزيل الغموض واللبس شرط أن يقوم به العالم به وأن توجه فحواه إلى القادر على فهمه والاتكال على يقينه. ولا يوجد تناقض فى رأيه بين الوجهة الدينية والوجهة الفلسفية ليس فقط فيما هو واضح وصريح بالشريعة بل وفى كل ما عبرت عنه فى صور تمثيلية مجازية قصد أن تكون أقرب إلى فهم أكثر الناس.. إن الدين يعبر عن الحقائق ويطلب الإيمان، والفلسفة تبرهن بطرقها عن الحقيقة ذاتها وهذا هو معنى لجوءها إلى التأويل والهدف منه^(١).

إن ابن رشد يقصر التأويل العقلى على الفلاسفة وهو مدرك جيد الإدراك ضرورة أن يخاطب الناس على قدر عقولهم حفاظا على مستويات الخطاب، فهو القائل فى كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»: إن طبائع الناس متفاوتة فى التصديق؛ فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقوال الجدلية تصديق صاحب

(١) انظر: غانم هنا: التأويل وتأسيس حق الاختلاف فى فكر ابن رشد، ضمن كتاب: ابن رشد - نهاية قرن وبداية قرن، الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة - سلسلة المؤتمرات (٢٢) - القاهرة ٢٠٠٩م، ص ١١٢.

البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقوال البرهانية^(١).

إذن علينا أن نعي أن من شروط الخطاب الديني هو مراعاة المستوى الذي تخاطبه من الجمهور، فأفضل طريقة لمخاطبة الجمهور هي الطريقة الخطابية (هذه الطريقة تخاطب العاطفة)، وأفضل طريقة لتعليم الجدليين (أصحاب علم الكلام)، هو الجدل، أما الخواص وهم أعلى أصناف الناس من الفلاسفة والراسخون في العلم - في عرف ابن رشد - فطريقتهم كما قلنا سابقا البرهان الذي هو طريق اليقين^(٢).

كما أن من شروط الخطاب الديني أيضا عند ابن رشد إدراك أن التأويل ينبغي أن يطبق تطبيقا صحيحا إذ ينبغي إخراج اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك «بعبارة لسان العرب» بمعنى أنه على من يتصدى للتأويل العقلي لآيات القرآن الكريم أن يكون عالما بأسرار اللغة العربية وبشروط التأويل الصحيح^(٣).

وإذا كانت تلك رؤية ابن رشد في القرن الثاني عشر الميلادي، فإن رؤية الإمام محمد عبده فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين (١٨٤٩م - ١٩٠٥م) لا تختلف كثيرا لأنه ممن دعوا إلى أن «العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معا حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة في المدنية الجديدة، ونقتبس منها ما يفيدنا»^(٤) وهو في هذه الرؤية العامة لا يختلف عن المفكرين المسلمين القدامى من الغزالي إلى ابن رشد، ولا عن المحدثين إذ إن الإجماع منعقد لديهم على أن العقل كما قال الإمام الغزالي «أس الشرع» ولا يمكن بناء ما لم يكن أساسا، وأن الحق العقلي لا يصاد الحق الديني أي أن التوافق بين ما أتى به العقل وما أتى به الشرع موجود،

(١) ابن رشد، فصل المقال - نشره مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٦٧م، ص ١١٨.

(٢) انظر: عبدالرحمن تليلى: التربية السياسية عند ابن رشد، ضمن كتاب ابن رشد، نهاية قرن وبداية قرن، سبق الإشارة إليه، ص ٨٢.

(٣) انظر: ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية، الترجمة العربية، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٤م،

ص ٣٨٠.

(٤) محمد عبده، زعماء الإصلاح، ص ٣٣٧ نقلا عن: د محمود حمدي زقزوق، مكانة العقل في فكر الشيخ محمد عبده، منشور ضمن كتاب: الشيخ محمد عبده بإشراف وتصدير د. عاطف العراقي، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ١٩٩٥، ص ٦٢.

ولا يمكن إلا أن نعمل العقل في النقل ونفسر الأخير بالأول دون خشية الوقوع في الخطأ طالما أن الإخلاص ديدننا وشروط التأويل العقلي والإيماني متوفرة لدينا.
إن محمد عبده، كان يؤمن بشدة بأمرين اثنين متلازمين كثيرا ما أعلن عنهما؛ أولا:
تحرير الفكر من قيد التقليد ومن هنا أباح النقد وهاجم الكثير من الخزعبلات والخرافات والفكر المتخلف الذي انتشر في عصره، ثانيا: فهم الدين على طريق سنة أوئل الأمة قبل ظهور الخلاف، فالخلاف بين الفرق ليس جوهريا لأنه ينحصر في فروع الأحكام وليس في أصول العقائد^(١).

ولعل هذا ما دعا الإمام إلى التأكيد على الأصول الخمسة للإسلام من وجهة نظره حتى يدركها ويلتزم بها كل من يتعرض للاجتهد في الخطاب الديني؛ الأصل الأول هو النظر العقلي لتحصيل الإيمان؛ فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح. الأصل الثاني هو تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض، فقد اتفق في رأيه أهل الملة الإسلامية على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل. الأصل الثالث هو البعد عن التكفير، فقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر. الأصل الرابع هو الاعتبار بسنن الله في الخلق وهو يعنى ألا يعول في الدعوة إلى الحق بعد الأنبياء على غير الدليل، وألا ينظر إلى الغرائب والعجائب وخوارق العادات، فأصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم هو ما جاء في كتاب الله بحسب قوله تعالى «لقد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. سنة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ولن تجد لسننتنا تحويلا. فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا، أما الأصل الخامس فهو قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها فالإسلام هدم بناء تلك السلطة الدينية ومحا أثرها إذ لم

(١) انظر: د. زينب الخضيرى، التطور والإصلاح عند محمد عبده، ضمن الكتاب السابق نفسه، ص ٨٥. وكذلك د. منى أبوزيد، منهج محمد عبده في دراسة العقيدة، ضمن نفس الكتاب، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه، فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه^(١).

وعود إلى بدء فيما يخص إصلاح وتحديث الخطاب الديني، وفي ضوء ما قدمنا حوله في الفقرات السابقة، نرى أن تحديثه وتطويره ينبغي أن يقوم على الأسس التالية:

١ - العودة إلى الاستناد إلى صحيح الدين (القرآن والسنة) قبل ظهور الخلافات بين الفرق، والتأكيد دائما على أن خلافاتهم هي مجرد اختلاف في الرأي وأن هذا الخلاف ليس فيما يخص جوهر العقيدة وإنما يخص بعض الفروع. ومن هنا فإن البحث عن المشترك فيما بينها يعنى أننا أمام اتفاق عام حول الجوهر والاختلاف فقط حول فروع ومن ثم يمكن تجاوز الخلاف والتقريب بين المختلفين بالعودة إلى الأصل وصحيح الدين قبل هذه الخلافات التي فجرت هذه الاختلافات في الرأي.

٢ - مراعاة التدرج في الخطاب الديني بحيث يكون الخطاب موافقا للمخاطب؛ فمخاطبة عامة الناس ينبغي أن يقتصر على شئون دينهم الحياتية وعدم إدخالهم في مناقشة القضايا الخلافية بين الفقهاء والمتكلمين والخاصة على وجه العموم.

ومن ثم فإنه على الجميع مراعاة أن الدخول في التفاصيل ينبغي أن يقتصر على المتخصصين حسب مستوياتهم العقلية والمعرفية، ولنتأسى بما قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتبه بدء من عناوينها، خذ مثلا «إلجام العوام عن علم الكلام»، و «المنقذ من الضلال». إنها مؤلفات تشير إلى ضرورة مراعاة أن لا ندخل غير المتخصصين في المناقشات الكلامية والمسائل الفقهية أو الفلسفية الدقيقة لأن هذا سيكون مدخلا للبس وعدم الفهم. ولنا في القرآن نفسه المثل الأعلى، حيث تعددت فيه مستويات الخطاب، ففيه خطاب ظاهر يفهمه العامة مباشرة، وفيه خطاب جدلي، وفيه كذلك خطاب برهاني بصورتيه الاستقرائية والاستنباطية. وكل قارئ للقرآن يفهمه حسب مستواه العقلي وقدراته المعرفية والتأويلية.

إن المهم في هذه المرحلة وطوال هذا القرن على الأقل أن نعود إلى الأصول دون الفروع والمسائل الخلافية حتى يتم التقريب بين المذاهب وتغليب الجوهر على المظاهر الخلافية حتى يعود المسلمون إلى فهم عقيدتهم النقية التي توحدهم في مواجهة

(١) محمد عبده: الإسلام دين العلم والمدنية، تحقيق ودراسة د. عاطف العراقي، دار سينا للنشر بالقاهرة،

أعدائهم الحقيقيين ، بدلا من تأجيج الاختلافات بين المذاهب والفرق المختلفة فيتقاتل المسلمون فيما بينهم تبعا لهذه الاختلافات التي تتحول فى كثير من الأحيان من اختلافات فى رأى إلى صراعات حزبية وسياسية ، ومن ثم تكون مدخلا للانقسامات والحروب !!

٣ - الحرص على عقلانية الخطاب الدينى ، والبعد بكل السبل عن إشاعة الخرافات والخزعبلات والبعد عن التقليد ومحاربة الجمود وإبراز القضايا المتجددة دوما والتعبير عنها على أساس من صحيح الدين وعقلانية التناول مغلبين الاجتهاد على التفكير.

إن الإسلام بطبيعته العقلانية الحاضرة على العلم إنما هو دين حدثى بكل معنى الكلمة ، ومن هنا ينبغى التذكير دوما بأن العرب - حينما كانوا قادرين على استيعاب عقيدتهم الاستيعاب الصحيح والتعبير عنها التعبير الصحيح - قد شاركوا وأسهموا بطريقة حاسمة فى تأسيس ما يسمى بالحدثة فى الحضارة الغربية ؛ فأسس هذه الحدثة إنما هى صناعة إسلامية ، صنعها الفلاسفة العقلانيون المسلمون وعلى رأسهم الكندى والفارابى والغزالي وابن رشد. وصنعها العلماء المسلمون ؛ بإسهاماتهم فى تأسيس وتطوير العلوم الدقيقة وعلى رأسهم جابر بن حيان والخوارزمى والحسن ابن الهيثم ، وابن النفيس وابن سينا والرازى وغير هؤلاء وأولئك كثير كثير. إن عناصر الحدثة إنما هى مستلهمه من الحضارة الإسلامية بعقلانية فلاسفتها وعلوم علمائها وما أسسته من دولة قوية عمادها القانون والمؤسسات القوية بنظامها العادل وحكامها الأفاضال الذين عرفوا حق المعرفة معنى الحكم وكيفية إقامة العدل ونبذ التعصب والقدرة على الحوار مع الآخر وتشجيع البحث العلمى ومجالسة الفلاسفة والعلماء.. إلخ. والخلاصة أن عقلانية الخطاب ينبغى أن تسود بين أبناء الأمة وكفانا جريا وراء الخزعبلات والخرافات والكرامات ، كفانا بُعدا عن العقل وهو أساس الشرع ومعجزة الإسلام الحقيقية ، إن الإسلام دين العقل فى الأساس ، ومن ثم فكل من يتعرض للخطاب الدينى لابد أن يتربى على احترام العقل ، وأن يمتلك أسس التفكير العقلى النقدى ، وأن يكون قادرا على مخاطبة الآخر بموضوعية وبعقلية محاورة ونقدية وليس بعقلية جامدة متخلفة منحازة للذات انحيازا أعمى دون فهم لضرورات الدعوة إلى الله ؛ فالدعوة إلى الله عمادها «وجادلهم بالتي هى أحسن» وليحرص صاحب الخطاب الدينى على إدراك أنه إنما يتعامل دوما مع أناس لديهم عقول وأفهام و «نهى» بلغة القرآن

الكريم، وليسوا أناسا منساقين أو مقلدين أو خاضعين! إن التربية القرآنية تربية للعقل قبل أن تكون لأى شئ آخر. فديننا دين العقل ومن ثم فالدعوة إليه ينبغى أن تكون باستخدام اللغة والمناهج التى تخاطب العقل.

٤ - نبذ التعصب، وهو أمر مهم وخاصة فى عصرنا، ولنا فى ماضى الدعوة الإسلامية الأسوة الحسنة؛ فمنذ نشأة الإسلام إلى اليوم نجد أن المسلمين لم يمنعوا أحدا من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة. ولقد سما فى دول المسلمين- كما يقول الإمام محمد عبده- على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الديانات المختلفة وكان ذلك فى شبيبيتها وكمال قوتها. ولم يزل الأمر على ما كان. وفى أغلب الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم فسحقا لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم^(١). ولعلى أضيف إلى ما قاله الإمام وسحقا لقوم من دعاة المسلمين المعاصرين الذين يثبتون فى الأذهان هذه المقولة التى يرددها هؤلاء.

إن التسامح مع أصحاب الآراء والمعتقدات الأخرى ضرورة يجب أن يعيها كل من يتعرض للخطاب الدينى فى عصرنا، لأن الحقيقة حمالة أوجه، ولا بد من احترام وجهات نظر الآخرين ومعتقداتهم المختلفة مهما كانت فى رأينا حاملة لأخطاء، إذ إن الرأى الخاطئ من وجهة نظرى هو عنوان الحقيقة لدى معتنقه، ورأى الصائب من وجهة نظرى قد يكون عنوان الخطأ من وجهة نظر الآخر. وعلى كل حال، فإن التسامح مع الآراء والمعتقدات الأخرى يرفع من شأن صاحب الدعوة ويسمو به إلى درجة عالية من الموضوعية التى قد تسمح فى النهاية للآخرين أن يقبلوا دعوته ويوافقوا على ما يطرحه من آراء ومعتقدات. بينما ضيق الأفق ورفض آراء الآخر وعدم التسامح معها من البداية يوقف الحوار ويجمد المعتقد لدى صاحبه فيظل عليه رغم أنه قد يكون- لو ألفت له القول وحاورته بأريحية وتسامح وفهم- مستعدا لقبول رأيك وقادرا على التواصل مع معتقدك. بل وربما مستعدا لأن يتحول إلى هذا المعتقد الجديد الذى تدعوه إليه.

إن نبذ التعصب ليس فقط منصبا على أصحاب المعتقدات الدينية والمذاهب الفلسفية الأخرى، بل أيضا ينصب على أصحاب المعتقدات المختلفة فى الدين الواحد أو المذهب

(١) محمد عبده: تاريخ الأستاذ الإمام، مقالة عن التعصب منشورة ضمن كتاب الشيخ محمد عبده، بإشراف

د. عاطف العراقي، سبق ذكره، ص ٤٠٠.

الفلسفى الواحد. إن نبذ التعصب لدى أصحاب المعتقد الدينى الواحد يعنى أنه يمكن للمختلفين فيه أن يتوافقوا على رأى واحد وسط، وأن يكون ذلك مدخلهم للوحدة بدلا من الفرقة والانقسام.

إننا فى عصرنا الحالى وخاصة فى عالمنا الإسلامى أحوج ما نكون إلى إعمال هذا المبدأ - نبذ التعصب - لأن من شأنه أن يجعل ما نعانى منه اليوم من انقسامات حادة بين السنة والشيعه، بين الفرق الشيعية المختلفة، والفرق السننية المختلفة، يجعله إلى زوال. إن انقساماتنا تجذرت فى الواقع الدينى والسياسى لأننا لم نعد قادرين على التسامح مع بعضنا بعضا، ولم نعد قادرين على نبذ التعصب للرأى الذى نؤمن به. فهل يمكن أن نعود إلى التسامح كقيمة كبرى من قيم الإسلام، هل يمكن أن ننبذ تعصب كل منا إلى معتقده ورأيه الخاص لينظر بإيجابية وبحب إلى الآراء الأخرى مركزا على الجوانب الإيجابية التى يمكن أن تساعد على تقريب وجهات النظر بدلا من تجذير اختلافاتها وتعميق الانقسامات المنبثقة عنها؟! هل يمكن أن نعود إلى النقاء والطهر الإيمانى الذى كان عليه رسولنا الكريم وصحابته العظام الأجلاء؟! هل يمكن أن نعود إلى التأسى بسمااتهم وحبهم لبعضهم البعض وتغليبهم مصالح عموم المسلمين على مصلحة أنفسهم؟! أتمنى ذلك وفى أقرب وقت ممكن لأن قرننا الحالى إما أن يشهد بداية ازدهارنا ووحدةنا وتقدمنا أو أن يشهد بداية نهايتنا وتجذير تخلفنا إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا!!

إننا نحتاج اليوم ونحن لا نزال فى بداية العشرية الثانية من القرن الأول فى الألفية الثالثة إلى خطاب دينى متسامح، إلى خطاب يدعو إلى التوحد والتجمع، إلى خطاب يدعو للتشارك فى صنع المستقبل الأفضل للأمة الإسلامية، فهل من مجيب؟!!!

٥ - استشراف المستقبل؛ فلقد درج أصحاب الخطاب الدينى سواء كان مقروءا أو مسموعا أو مرثيا على العودة إلى الماضى باعتباره الأفضل والأمثل، والحقيقة التى ينبغى أن يعيها هؤلاء أنه لا قداسة للماضى إلا بقدر ما كان فيه من نقاء للعقيدة وصفاء لقلوب أتباعها وقوتهم فى الحق وصناعتهم للتاريخ. أما ما عدا ذلك فهم بشر مثلنا أصابوا وأخطأوا، أحبوا وكرهوا، تسامحوا وتعصبوا، عملوا الخيرات كما ارتكبوا الذنوب والمعاصي.. إلخ، ومن ثم فإن لنا أن نأخذ من التاريخ الماضى للمسلمين ومن تراثهم العبرة والخبرة، وما عدا ذلك فليكن تمحيصنا للحاضر ونظرتنا النقدية إلى ما نحن فيه من جمود وتخلف مما جعلنا على ما نحن فيه من دونية وانحطاط سياسى واقتصادى

وما نعانى منه من فرقة وانقسام، وضعف فى الفكر والثقافة وعدم قدرة على التجديد والاجتهاد. بل امتد الأمر إلى فساد أخلاقى لم تكن يوماً نعانى منه كأمة كان خلق نبيها القرآن!!

وليكن فحصنا للحاضر ونظرتنا النقدية إليه دافعا لنا إلى التأمل فى المستقبل نشداناً لمستقبل أكثر تقدماً وأكثر انجازاً وأكثر ثقة وقوة. إن قوة الحاضر لا يمكن أن تتحقق كما نصبوا إليها إلا إذا أمعنا التأمل فى المستقبل والتخطيط الجيد له. فتحديث الحاضر لا يكون بامعان النظر فيه بقدر ما يكون بالنظرة المستقبلية إلى تحديد الأهداف التى نصبو إلى تحقيقها ومن ثم إعداد الخطط التى تمكننا من تحويلها إلى واقع نعيشه سعداء حتى نسلمه إلى أجيالنا اللاحقة أكثر تحقيقاً للسعادة وأكثر إشراقاً.

ولعل سائل هنا يسأل على أى شىء نستند فى استشرافنا للمستقبل؟ هل على رؤية الفلاسفة والعلماء، أم على رؤية من ديننا ومن قرآننا؟!

ولهذا السائل أقول: بل على هذا وذاك يا سيدي، فالقرآن الكريم لم يكن كتاباً فى التاريخ حينما روى لنا قصص الأولين للعتة والعبرة، ولم يكن كتاباً نزل لمشكلات لحظة حاضرة نزلت آياته تترى عليها. إنه لم يكن كتاباً للماضى فقط كما لم يكن كتاباً نزل لمعالجة قضايا حقبة تاريخية نزل فيها، بل هو - كما هو معلوم للمؤمنين به - كتاب صالح لكل زمان ومكان. ومن ثم فهو نزل للماضى والحاضر والمستقبل. ومن ثم فلم يكن القرآن خالياً من حديث معجز عن المستقبل. خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة النور: آية: ٥٥].

وخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ الْم ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤

كشفت عن وعد مستقبلي لأمة الروم الذين كانوا في ذلك الوقت أمة مهزومة من الفرس ، وقد تحقق هذا الوعد فانتصر الروم بعد بضع سنين على أعدائهم بعد تلك الهزيمة وفرحوا بنصر الله بالفعل.

إن هذا الحديث القرآني المعجز عن المستقبل وما سيجرى فيه من أحداث إنما هو إشارة لا تخفى على من يتأملها إلى أن يهتم المسلمون بالنظر إلى المستقبل وعدم التوقف عند حدود الماضي والحاضر ، لأن الإنجاز الذي ينتظره الله منا دائما كأمة وثق فيها واستخلفها في الأرض هو إنجاز دائم التجدد وهو إنجاز للمستقبل المتجدد. فكيف لنا أن نجعل الحاضر في خدمة الإنجاز الأقوى في المستقبل؟ كيف لنا أن نحول ما نراه في حاضرنا من فشل وتخلف إلى نجاح وتقدم في المستقبل؟! كيف لنا أن نحول ما نراه في حاضرنا من انقسام وفرقة وضعف إلى وحدة، واعتصام وقوة في المستقبل؟!

لا شك أن هذه الكيفية التي نتساءل فيها لا تتحقق بمجرد الوعي بها والحلم بتحقيقها، وإنما تتحقق عبر الوعي بما ينقص الأمة الإسلامية في حاضرنا من عوامل القوة وتحويلها بالعلم والعمل إلى طاقة قادرة على تحقيق التقدم في المستقبل. ومن هنا فإن استشراف المستقبل الذي يقوم به الفلاسفة في فلسفاتهم للتاريخ والحضارة والبيئة والعلم والفن إلخ، واستشراف المستقبل الذي يتنبأ به العلماء في تخصصاتهم المختلفة ينبغي أن يكون من أدواتنا الفاعلة لاستشراف المستقبل وإدراك مكاننا فيه!! هل سنرضى بالمكانة المتدنية التي نحن عليها والتي لا تتفق مع مبشرات الإسلام وقوته الإيمانية والمعرفية، بل الأخلاقية والاقتصادية والسياسية؟! أم أننا سنكون عند حسن ظن الله ورسوله فينا فنعمل العقل ونخلص في العلم الجاد والعمل المتقن حتى نصل إلى ما نصبو إليه من تقدم يحقق لنا السيادة والريادة التي افتقدناها منذ القرن الرابع عشر وحتى الآن؟!

أيها السادة، يا قادة الرأي وأصحاب الخطاب الديني التنويري، إن عليكم واجب النظر إلى المستقبل والتنبؤ بمساره والعمل بمقتضى ذلك؟! وإذا كنا نحن عاجزون عن ذلك، فلننظر فيما كتبه الكاتبون من الفلاسفة والعلماء بخصوص المستقبل للعمل بمقتضاه والتفاعل بإيجابية مع متطلباته حتى يكون لنا مكانا في المستقبل بين أمم العالم المتقدمة^(١). إن استشراف المستقبل والتنبؤ بما يمكن أن يحدث فيه لم يعد ضربا من الوهم

(١) راجع هنا: على سبيل المثال كتابنا: ما بعد العولة - قراءة في مستقبل التفاعل الحضاري وموقعنا منه، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م، ص ٩١ - ١٣٣.

ولم يعد تنجيما يعد بالخرافة ويتحمل بالأوهام ، بل أصبح ضرورة مؤسسة على أسس فلسفية ونظريات علمية أساسها عقلانية التاريخ وما حققه العلم من تقدم فى اللحظة الحاضرة له نتائج المستقبلية ومن ثم فإن الخطاب الدينى لا ينبغى أن يكون بعيدا لا عن عقلانية الفلاسفة وتنبؤهم بمسار التاريخ الإنسانى ومبشراته وخاصة بالنسبة للمسلمين ، ولا ينبغى أن يكون بعيدا عن إدراك مسارات التقدم العلمى المليئة بالمبشرات التى ليست كلها خير بالنسبة للبشر ، بل فيها الكثير من المطبات والمصائب التى قد تعود على الإنسان بأفدح الأضرار .

إن على أصحاب الخطاب الدينى بكل أشكاله أن يواكبوا ثقافة العصر ومدى التقدم فى فلسفته وعلومه حتى يكونوا معاصرين وقادرين على التعليق بإيجابية على كل ما يحدث فى الحاضر وكل ما يمكن توقعه فى المستقبل .

إن الخطاب الدينى ينبغى أن يتطور إلى هذه الدرجة المطلوبة حتى يكتسب ثقة أتباعه ويمتلك القدرة على توجيههم بإيجابية للتعامل مع قضايا العصر والاستعداد لتحدياته المستقبلية .

